

## الظلم ممارسةٌ وتجاهلاً ودولةٌ لها أركان



قال رسول الله (ص) فيما رواه البخاري ومسلم وأحمد: (الظالم طالمات يوم القيمة)، ذلك لأنّ محكمة الحقوق في الآخرة يقام فيها العدل على أكمل وجه، فيقتصر للمظلومين جناءً وإنساً وعجماءً من طالبهم سادة كانوا أو عامة.

وإذا كان عدوان الشاة على الشاة يستدعي القصاص يومئذ (لتدور دُونَ الْجُقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا يوم القيمة حتى يُقاد لسلشاة الجلحاء من الشاة الضراء) - مسلم وأحمد والترمذى، ومنع امرأة هرتها الماء والطعام يدخلها النار (عُذْ بِتِ امْرَأَةٍ فِي هَرَّةٍ سَجَدَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْهُ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ حَشَاشِ الْأَرْضِ) - البخاري ومسلم، وقطع شجرة نافعة لغير مصلحة يستوجب تصويب رأس القاطع في النار (قطيع السدر يُصوَبُ إِلَى أَهْلِ رَأْسَهُ فِي النَّارِ) - رواه البيهقي في الكبرى وحسنه الألباني -، مما بالك بمن يظلم أخاه الإنسان، مؤمناً كان أو غير مؤمن، من أي ملة أو دين أو مذهب؟ بل ما بالك بمن يظلم أولياء الله تعالى من الدعاة والصالحين والآمرين بالمعروف الناهيين عن المنكر؟

إنّ ميزان الآخرة منضبط على معيار واحد يميز العدل من الظلم (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ

بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (غافر/17)، عدل ينجي وظلم يركس في الجحيم. لذلك ورد الأمر بالعدل والتحذير من الظلم قرآناً وسنة في سياقات كثيرة، وبأشد الصيغ دقة ووضوحاً، يقول تعالى:

(الْأَذْيَنَ أَمَدُوا وَلَمْ يَتَبَسُّوا إِيمَانَهُمْ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأనعام/82).

(اَحْشُرُوا الْأَذْيَنَ طَلَمُوا وَأَرْجَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ \* مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحَّامِ) (الصافات/22).

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأَحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعْنَاتُكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل/90).

ويقول فيما يرويه عنه نبيه (ص): (يَا عَبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَيَّ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّرًا فَلَا تَطْعَمُوا) - مسلم وأحمد والترمذى -.

ويقول (ص) في حجة الوداع: (...فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحْرَمَةٍ يَوْمَكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا لَيْلَةَ الْمَحْرُومَ الشَّاهِدُ الْغَائِبُ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُعَذَّلَ لَغَيْرِهِ هُوَ أَوْ عَيْلَهُ مَنْهُ) - البخاري -.

إنَّ التحرير الصارم للظلم مبعثه العدل الإلهي المطلق والرحمة الربانية الشاملة، لأنَّ الظلم مصدر كل رذيلة ومنبع كل شر، وما الفساد إلا بعض نتائجه (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) (البقرة/205)، وما البغي إلا بعض ثماره (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذْ سَمِّا بَغْيُكُمْ عَلَيَّ أَزْفَسْكُمْ) (يونس/23).

إنَّ الظلم لغة مشتق من أصلين صحيحين ومتداخلين، أحدهما خلاف الضياء ومنه الظلمة والظلام، والثاني وضع الشيء في غير موضعه كحال الشرك الذي هو في حقيقته جعل المخلوق في منزلة الخالق ولذلك كان أعظم الظلم (إِنَّ الشَّرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/13)، كما يعني التصرف في ملك الغير تعدياً، ولذلك كان الظلم مستحيلاً في حق الله تعالى لأنَّ الكون ملكه يتصرف فيه كما يشاء، كما يؤدي معنى التعسف وتجاوز الحدود، (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (البقرة/229)، (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ طَلَمَ نَفْسَهُ) (الطلاق/1)، ومعنى التغيير بالزيادة أو التبدل أو النقص بغير وجه حق، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: (فَبَدَلَ الْأَذْيَنَ طَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الْأَذْيَنِ قَبِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيَّ الْأَذْيَنَ طَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ) (البقرة/59). وقوله عز وجل: (كَلَّتِ الْجَنَّةَ آتَتْ أُكُلَّهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) (الكهف/33).

وقد استعمل لفظ "الظلم" في كلام الشارع لثلاثة أصناف تدور كلها بين الكفر والكباير هي:

1. ظلم بين المرء وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق (يَا بُنْيَّيْ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/13).
2. (فَبُهْتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الطَّالِمِينَ) (البقرة/258).
3. ظلم بين المرء وبين الناس (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (الشورى/42).
4. (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيَّهِ سُلْطَانًا) (الإسراء/33).
5. ظلم بين المرء وبين نفسه (فَمَنْدُهُمْ طَالِمٌ لَنَفْسِهِ وَمَنْدُهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَنْدُهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ) (فاطر/32).
6. (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) (التوبه/36).

والأصل في هذه الأصناف كلها ظلم النفس، إذ كل طالم في حقيقة الأمر طالم لنفسه وكل محسن محسن إلى نفسه (مَنْ عَمَلَ صَالِحًا فَلَنْفَسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبَّكَ بِطَّالِمٌ لَتُعَذِّبِهِ) (فصلت/46)، (إِنَّمَا أَحْسَنَتُمْ أَحْسَنَتُمْ لَا نَفْسَكُمْ وَإِنَّمَا أَسَأَتُمْ فَلَتَهَا) (الإسراء/7)، لأنّ عاقبة تصرفات المرء تعود عليه جراءه وفاقاً في الآخرة (لَيَسْ بِأَمَانٍ يَكُمْ وَلَا أَمَانٍ يَأْهُلُ الْكِتَابَ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ) (النساء/123) (وَمَا طَلَمْنَا هُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (النحل/118). إنّ الإنسان يولد على الفطرة سوية، وكما يلتقم ثدي أمه تلقائياً يرضعها حالماً يخرج إلى الحياة يهتدي إلى الصواب وتمييز الحق من الباطل، إلا أنّ عوامل كثيرة تتدخل فتعصف بسلامة الفطرة وصفائها، عوامل من تربية سقيمة أو أهواء جامحة أو مصالح موهومة، فيميل المرء بذلك إلى الظلم والعداون. شعوره بالنقمة أو الضرعة يدفعه للتعالي والتجرّب والعدوان والظلم، وحبه الشهوات متعاً رخيصة وغراائز مخزية يصرفه عن الحق ويميل به عن الرفق والعدل، وحب الرئاسة وصولاً إليها أو تمسكاً بها يورطه في الجرأة على الدماء والأموال والأعراض، والخوف من السلطان يحمله على متابعته وارتكاب ما يرضيه، والطمع في عطايه يؤدي به إلى الخصوع المطلق والاستخداوة والركون وخذلان الحق وأهله.

وأساس كل هذا الشرك ظاهراً وخفياً، وعلاجه التوحيد الحالمن، لأنّه يحرر صاحبه من قيود المادة والهوى والخوف والرهبة والطمع، ويلزمه العدل في التصرفات والحق في المعاملات، لأنّ مراقبة الله تعالى والثقة به واليقين بمعيته وللقائه يملأ القلب قوةً على تجنب الظلم وعزمًا على مواجهة أهله، ومناعةً ضد غرائز التسلط والبغى والعدوان والتعلق بالجاه والمال، وقدرةً على المساهمة في إقامة شهادة الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإباءً للانظام الذي هو تحمل الظلم خنواعاً وخصوصاعاً؛ ذلك

أنَّ للمؤمن في مواجهة الباطل طريقين لا غير: مواجهته أو الهجرة عنه إنْ عجز عن المواجهة وخشي الإضرار بدينه، وهو ما يشرحه قوله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمُمَلَّكَةُ طَالِمِي أَرْفُسْهُمْ قَاتُلُوا فِيمَا كُنْتُمْ مُسْتَحْفَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَاتُلُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الْلَّهِ وَاسْعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء/97)؛ ولا يستثنى رب العزة من هذه المسؤولية إلا العجزة (إِنَّ الْمُسْتَحْفَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا) (النساء/98).

إنَّ تحمل الظلم والرضوخ له يعد حالة أخرى تجعل المظلوم في وضع الطالم بتنازله عن كل ما يراه ضاراً به من أمر عقيدته وعبادته، فيزداد الطالمون بهذا الخنوع استكباراً في الأرض واستعباداً للخلق وإفساداً للدين. وتثيراً للأتباع والأعونان، وتنشأ بذلك طبقة مستغلة فاسدة طالمة، مما يؤدي إلى التقاتل والتصارع والفتنة. لذلك كان لمحامي الظلم نصيبٌ من المسؤولية ومحاسبةٌ بين يدي الله تعالى، ولن ينجيهم جوابهم بأنَّهم كانوا مستضعفين في الأرض إلا أن تشملهم من الله رحمة (قَاتُلُوا فِيمَا كُنْتُمْ قَاتُلُوا كُنْتُمْ مُسْتَحْفَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَاتُلُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الْلَّهِ وَاسْعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء/97).

إنَّ الإنظام - وهو حال المظلومين القادرين على المواجهة ودفع الظلم عنهم أو الهجرة - يكون في الدين والنفس والمال والكرامة والعرض والرأي، وكل ذلك مذموم يأبه اللبيب الكريم ممارسةً فيه أو ممارسةً في غيره، لأنَّه غبن وهوان ومذلة، والمؤمن ينبغي أن تتوفر فيه قوة الانتصار للحق غير ذليل ولا مهين ولا عاجز (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْدَمِرُونَ) (الشورى/39)، ولأنَّ العلاقة الطبيعية عقلاً وشرعًا بين الناس ينبغي ألا تخرج عن دائري العدل أو الفضل.

العدل هو إعطاء الحقوق محاسبة على التمام والسواء (إِنَّ الْلَّهَ يَأْمُرُ كُمْ أَنْ تُؤْدِيَ الْأَمَارَاتِ إِلَيْكُمْ هَذِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِمَا عَدْلُكُمْ) (النساء/58)، (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (الشورى/40).

أما الفضل فهو السماحة في التقاضي، والتكرم في بذل الحقوق واستيفائها (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلْتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) (البقرة/237).

إنَّ من عدل الله عز وجل أن جعل الناس سواسية، وجعل لهم مرجعاً شرعاً يضبط تصرفاتهم ويمنع بعضهم من بعض، كما أنَّ النظام الاجتماعي ليس فيه صعف أو قوة، ولكن فيه استعلاء من طرف فئة باغية تفرض استكبارها وجبروتها وهيمنتها، واستضعاف وخنواع وقابلية للتبعية العميق من طرف كتل بشريه مستخلفة العقول فارغه (فَاسْتَحْفَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاءُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسْقَيْنَ) (الزخرف/54).

وقد وصف تعالى حال هؤلاء المستخلفة عقولهم يوم القيمة بقوله:

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) (البقرة/166).

(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَدَنَا كَرَّةً فَنَذَرَتِيَرَأَى مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأَ أُولَئِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجٍ مِنَ النَّارِ) (البقرة/167).

لذلك كان من الظلم حقيقة لا مجازاً أن تskت عنه أو ترضي به أو تحمله ولو كرهها إن استطعت الهجرة عنه.

إنَّ الظلم سلوك خاطئ منحرف، ومرآة تكشف عمق الفساد في نفسية صاحبه وسوء مخبره، لذلك اشتد غضب الله تعالى عليه وتوعده بالعقاب الأليم فقال:

(إِنَّمَا أَعْنَدَ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ نَارًا لِلظَّالِمِينَ يَسْنَدُ غَيْثُوا يُغَاثُوا بِمَاءِ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقَا) (الكهف/29).

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَبِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْدُتُمْ تَكْسِبُونَ) (الزمر/24).

ولعل معتريضاً يقول: هذا عقاب الطالم بما بالجندي وهو مأمور والساكت المستضعف وهو مغمور؟ والجواب أنَّ ميزان العدل لا يفرق بين السيد والمسود والتابع والمتبوع والفاعل والمعين على الفعل، فكلهم شركاء يجمعهم المصير الواحد (كُلُّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَدَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَ كُوَا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لَا وَلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلَّوْنَا فَآتَهُمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٍ وَلَكُنْ لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف/38). لأنَّ الطالم لابد له من قوة تعينه على الظلم وجند يحمونه عند ممارسته، وهما فين يشجعونه عليه، وراضين رغباً ورهباً أو استخداماً واستضاعافاً؛ وقد ورد في الأساطير أنَّ ملكاً هم بقتل جميع أفراد شعبه فقال له أحد مستشاريه: "إِنَّكَ لَا تسمى ملكاً إِلا بوجودهم وإن تخلصت منهم فقدت ملكك، والأجر أن تحتفظ بهم أدلة خانعين".

إنَّ دولة الظلم لابد لها من أركان، وأركانها الطالم وحاشيته وأعوانه والراضون بحكمه والمستخذلون بين يديه، فإن فقدت هذه الأركان لم تقم للظلم دولة ولا للطالمين صولة.

إنَّ للظلم دوائر كثيرة بعضها أخص من بعض، ودرجات متباينة بعضها أخطر من بعض؛ وكلما كانت الدائرة أقرب إلى التأثير في مجال الاعتقاد وما يرتبط به من تصورات، كان الأمر أدعى إلى الاهتمام به وبخطورة

نتائجه، وكلما كان الظلم المركب أكثر شمولاً وأعمق تأثيراً كانت تداعياته أكثر ضرراً.

إنَّ أَكْبَر دُوَائِر الظُّلْم هِي الشَّرْك بِالْعَالِي (إِنَّ الشَّرْك لِظُلْم عَظِيم) (لقمان/13): لأنَّه كذب شنيع وافتراء عظيم على الله عز وجل، ذلك أنَّ في الإشراك قلباً للحقائق ووضعاً للأشياء في غير موضعها، وهذا أصل الظلم وحقيقة، فمن أشرك بالله أو عدل به غيره أو اتخذ له سجانه ندأ فقد ارتكب الظلم الأعظم وخلع ربقة الإسلام من عنقه. وإذا كان أعظم ظلم للنفس هو الإشراك بالله تعالى، فإنَّ له علاجاً ناجعاً هو التعجيل بالتوبه وتصحيف العقيدة والاستغفار (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِتَمَدِّينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِرَجَاهَا لَهُ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرْبَيِ فَأُولَئِكَ يَتُوبُونَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا) (النساء/17) (قُلْ يَا عَبْدَ رَبِّكَ إِنَّمَا أَسْرَفُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ لَا تَفْنِطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّرُوبَ جَمِيعاً إِنَّمَا هُوَ الْغَافُورُ الرَّحِيمُ) (ال Zimmerman/53).

إلا أنَّ هناك ظلماً أقل درجة من الشرك الذي يتخلص منه المرء بمجرد التوبة النصوح والتوحيد الخالص؛ هذا الظلم هو ظلم العباد. وهو وإن كان أقل درجة من الشرك، فإنَّ التوبة منه معلقة برد المطالع لأهلها، مما يجعل أمر التحلل منه أشد عسراً، قال عليه الصلاة والسلام : "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لَأَخْرِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَأْتِهِ مَظْلَمَهُ الْيَوْمَ فَيَدْرِرَ لَا يَكُونَ دَرِيْنَارٌ وَلَا دَرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخْذَ مِنْهُ بِرَقَدَرْ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخْذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ فَاجْمِعْ عَلَيْهِ - البخاري - .

هذا الظلم يتمثل في صور شتى ويتشخص في أصناف من الناس كثيرة، منهم من أخذهم الله بعذاب الدنيا والآخرة من ذكرهم الوحي قرآناً وسنةً، ومنهم من يعاصرنا ومنهم من يأتي بعدها: منهم الحكام المتألهون، والأغنياء المستكبرون والتجار المطففين والفساق السابقون والمعاصرون من قوم عاد ولوط وصالح.

ومنهم ظالم أبويه بإهمالهم أو الإساءة إليهم، وظالم أرحامه بالقصیر في حقوقهم أو التخلی عنهم أو الإضرار بهم.

ومنهم ظالم زوجته في عرضها بالنظر إلى غيرها بما لا يجوز، وظالمها زوجها في عرضه بالنظر إلى غيره بما لا يحل.

ومنهم ظالم لقومه أو قبيلته أو عرقه بالتعصب لهم وإعانتهم على الباطل كما قال الرسول (ص) إذ سئل ما العصبية؟ : (أن تعين قومك على الظلم) - المعجم الكبير - .

ومنهم من يظلم المسلمين عامة بعدم النصح لهم، أو عدم نصرتهم أو بخيانتهم والتنكر لهم. ومنهم من يظلم الإنسانية عامة بالقصیر في واجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومنهم الدول المسلمة الطالمة التي لا تقيم العدل فيسلط الله تعالى عليها عدوها ولو كان مشركاً، كما

هو حال أمة موسى (عليه السلام) التي سلط عليها بختنصر الوثنى، وال المسيحيين إذ ظلموا فسلط عليهم جباررة عبدة أصنام أذلوهم وغيروا دينهم، وحال دول المسلمين الطالمة حالياً وقد هزمت أمام مجوس الهند في باكستان، وصهاينة بنى إسرائيل في فلسطين، وعباد الوثن في السودان وعباد الصليب في العراق...، قال تعالى: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ طَالِمَةً وَأَزْشَأْنَا بَعْدَهَا فَوْمَا آخَرَنَّا) (الأنباء/11)، (كَأَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَذَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسْلِهِ فَجَاءَسَبْدَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبَهَا عَذَابًا نُكُراً) (الطلاق/8).

كما أنّ منهم الذين يخذلون الدعاة إلى الله تعالى والمجاهدين في سبيله والمعتقلين والمهاجرين والشهداء، بالتخلي عنهم وإهمال أسرهم وذراريتهم وعدم الدفاع عنهم؛ فإن بلغ الأمر إلى أكل لحومهم والشماتة بما أصابهم أو أصاب ذرياتهم، أو القيام بالتجسس عليهم وقدفهم، أو السعي لإطالة محنتهم، كان ذلك أقرب إلى أعظم الظلم الذي هو محاربة الله ورسوله بمحاربة أوليائه ودعاة دينه، وهذا ما عبر عنه الرسول (ص) في الحديث القدسى الذى رواه عن رب العزة قال: (مَنْ عَادَ لِي وَلَيْهَا فَقَدْ آذَ زُنْدُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقْرَبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمْـا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَرَى عَبْدِي يَتَقْرَبُ إِلَيَّ بِالذِّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمِعَهُ الْكَذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الْكَذِي يُبَصِّرُ بِهِ وَيَدَهُ الْكَذِي يَبْدِلُ طَشُّ بِهَا وَرِجْلَهُ الْكَذِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنَّهُ لِأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَادَنَّهُ لِأُعْيَذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَرَأَ فَيَأْتُهُ تَرَدَّدْهُ عَنْ زَفْرَنَ الْمُؤْمِنَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَرَأَ أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) - البخاري -.

ذلك أنّ هؤلاء الدعاة المخدولين من قبل إخوانهم، هم في حقيقة الأمر قد اختاروا الله تعالى على ما سواه، ووالله وعادوا أعداءه وانقطعوا لخدمة دينه، فهم أولياء له عز وجل (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس/62). ولئن اختارهم الله في الدنيا للبلاء فعسى أن يكون لهم في الآخرة حسن الجزاء.

ولئن فرح المخلفون لما أصاب الدعاة الصادقين، فكفاهم عقوبة لظلمهم إن لم يهتدوا إلى التوبة قوله تعالى: (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَزْصَارٍ) (البقرة/270)، (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ زَصِيرٍ) (الحج/71) (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمْيَمٍ وَلَا شَفَاعَ يُطَاعُ ) (غافر/18).

إنّ الحقيقة الغائبة عن أولئك الخاذلين أنّ ابتلاء الدعاة الصادقين يتضمن في الواقع الأمر ابتلاء آخر للمعافين والشامتين الخاذلين، وكشفاً لحقيقة أمرهم، أما العافية والمعافاة والنصر فمن الله سبحانه وتعالى وحده فقط. وما دفعهم إلى ما ارتكبوه من إثم وظلم في حق الدعاة المبتلين، إلا احتلال في مقاييسهم الشرعية، وصوابية في نظرتهم الدينوية، وانعدام المرودة في نفوسهم الدينية، وعسى أن تكون

ما وافقهم الطالمة هذه رحمة بالدعوة وتطهيرها لصف الدعاة: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَبْذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَرْتَهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمْرِزَ الْخَبَيِثَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَبْذَرَ عَلَىٰ الْغَيْبِ) (آل عمران/179).

ونظراً لخطورة الظلم وشدة غضب الله تعالى منه، وما ينتظر صاحبه من العذاب، قص القرآن علينا من أخبار الطالمين وعاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة ما هو كفيل بإيقاظ الهمم وتطهير النفوس فقال عز وجل: (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) (القصص/8)، (فَأَخَذَ زَاهِهُ وَجُنُودَهُ فَنَذَبَذَ زَاهِهُمْ فِي الْيَمِّ فَارْتُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الطَّالِمِينَ) (القصص/40)، (وَأَخَذَ الْمَذَنِينَ طَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود/67).

كما أنَّ الرسول ﷺ (ص) كان يحذر المؤمنين من الظلم ويحضهم على اتقائه، ويقول: (إِذْقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَنَّ اللَّهَ حِجَابُهُ) - البخاري-، (إِذْقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ) - البخاري-، (ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطَرُ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرُدُّ فَعْهَا فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفْتَدِحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ وَعَزَّتِي لَا نَصْرَنِكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينِ) - الترمذى-، (دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنَّ كَانَ فَاجِرًا فَفُجُورُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) - أحمد-.

وكان عليه الصلاة والسلام يستعيد بما من دعوة المظلوم جهراً أمام المسلمين تعليماً لهم بقوله عند الخروج للسفر والعودة منه: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْدَنَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْجَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ) - النسائي-.

وعندما شكا إليه صاحبي سوء تصرف فتيان لديه، فيما روتته عائشة قائلة: (يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَهْلُوكَيْنَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُوْزُونَنِي وَيَعْصُونَنِي وَأَشْتُدُّهُمْ وَأَصْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَرَاهُمْ؟ قَالَ) (ص): يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَمَوكَ وَكَذَّبُوكَ وَعَقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنَّ كَانَ عَقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنَّ كَانَ عَقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَهُمْ لَا لَكَ، وَإِنَّ كَانَ عَقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَقْتُصَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ، قَالَ فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتَفِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ (وَنَصَاعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُطْلِمُ نَفْسًا شَيْئًا وَإِنَّ كَانَ مِثْقَالًا...) (الأنباء/47)، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلِهِؤُلَاءِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارِقَتِهِمْ أُشْهِدُكُمْ

أَنْزَهُمْ أَحْرَارُ كُلُّهُمْ - الترمذى وأحمد-

كما أنس<sup>ص</sup> (ص) أعطى من نفسه القدوة، فأبرا ذمته من حقوق الخلق، في مرضه قبل موته فيما رواه البخاري، إذ خرج متکنا على الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب (ع)، حتى جلس على المنبر، وكان مما خطب: (أما بعد أيها الناس، إنه قد دنا مني خلوف من بين أظهركم، ولن تروني في هذا المقام فيكم...). فمن كنت جلت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً، فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشحناه من قبلي، فإنها ليست من شأنى....).

على أنَّ من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده، أن جعل في الآخرة أيضاً - وهي دار جراء ولا عمل - مجالاً لتصالح المؤمنين وتسامحهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله (ص) جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناباه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: رجلان من أمتي جثياً بين يدي رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلومي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطلاب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناه شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري، قال وفاضت عينا رسول الله (ص) بالبكاء ثم قال: إنَّ ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحملونه من أوزارهم، فقال الله تعالى للطلاب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأينبي هذا أو لأي صديق هذا أو لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى عن وجل: فخذ بيدي أخيك فأدخله الجنة. فقال رسول الله (ص) عند ذلك: اتقوا الله وأصلحوا ذات بینکم فإنَّ الله تعالى يصلح بين المسلمين- المستدرك على الصحيحين.